الحكم العطائية

والمناجاة الإلهية

للإمام

تاج الدين أحمد بن محمد بن عبد الكريم

ابن عطاء الله السكندري

صححها وعلق عليها

حسن السماحي سويدان

حقوق الطبع محفوظة

الطّبعة الأولى

١٤١٩ هـ ـ ١٩٩٨ م

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام الأتمان الأكملان على محمد خاتم النبيين، وعلى آله وصحبه وتابعيه بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد: فإن لباب «الحكم العطائية» التحقق بالعبودية والقيام بحقوق الربوبية، وقد أشار إلى ذلك الإمام ابن عطاء الله في أكثر من حكمة، فقال في الحكمة (١٦٦): ليكن طلبك لإظهار العبودية وقياماً بحقوق الربوبية.

وقوله في الحكمة (١٢٥): كن بأوصاف ربوبيته متعلّقاً، وبأوصاف عبوديتك متحققاً. وقال في الحكمة (٧٩): مطلب العارفين من الله تعالى الصدق

في العبودية والقيام بحقوق الربوبية.

كما حذّر هذا الإمام الجليل من مقالات أهل الإلحاد كالحلول ووحدة الوجود والاتحاد فقال في الحكمة (٢١٣): وصولك إلى الله وصولك إلى العلم به، وإلا فجلّ ربنا أن يتصل به شيء أو يتصل بشيء. وقوله في الحكمة (١٢٦): منعك أن تدعيَ ما ليس لك مما هو للمخلوقين، أفيبيحُ لك أن تدعيَ وصف رب العالمين!!

ولما لهذه الحكم من مكانة أهتم بها العلماء قديماً وحديثاً بالشرح والنظم والترتيب والتبويب[1]، كما درّست في كثير من معاهد العلم الشرعي، ورغبة مني في المشاركة في خدمة هذا الكتاب قمت بالإشراف

(١) بوَّبَ «الحكم» حسب الموضوعات، وجمعَ النظائِرَ إلى نظائرها فأغنى بذلك عن الشرح العلامةُ المتقي الهندي صاحبُ «كنز العمال» في كتابه «المنهج الأتم بتبويب الحكم» وهو من منشورات دار القادري بدمشق. =

على طبعه بعد أن صححت متنه وذلك بالتعويل على طبعة دمشق المطبوعة في «مطبعة الفيحاء» على نفقة المدرسة التجارية العلمية بدمشق، ورجعت فيما أشكل علي إلى طبعة الأستاذ الكبير أحمد عبيد رحمه الله تعالى، وإلى طبعة المكتبة الأزهرية للتراث بتحقيق أحمد عزّ الدين عبد الله خلف الله وإلى عدة شروح كشروح ابن عبّاد النفزي وابن عجيبة والشرقاوي ثم قمت بضبط ما يحتاج لضبط، وخرّجت أحاديث الكتاب، وشرحت بعضَ مصطلحات الصوفية.

فيا أخي المسلم: احرص على لباب التصوف، وهو التوحيد الذي جاء به الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه، وحقق ذلك في سلوكك[1]، واجعل ميزانك

(١) ويتم ذلك من خلال توحيد الربوبية الذي من ثمراته تعظيم الخالق سبحانه وشكره ومحبته. وتوحيد الألوهية الذي من ثمراتِه إفراد الله سبحانه بالعبادة بكل معانيها وصورها وخشيته من التقصير في حقه.
انظر الحكمة رقم (١٤٩). =

كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، فاقبل ما قبلاه، وأعرض عما عارضاه ـ تنجو بإذن الله تعالى، قال ابن عطاء الله في الحكمة (٧٥): خير ما تطلبه منه ما هو طالبه منك.

واحذر مما حذر منه الإمام ابن عطاء الله من الشطحات والنزغات التي أراد أعداء التصوف دسها فيه والتلبيس بها على الناس، ليخرجوهم من النور إلى الظلمات، أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون.

نعوذ بالله من أن نَضِلَّ أو نُضَلَّ، أو نَزِلَّ أو نُزَلَّ، أو نَجْهَلَ أو يُجْهَلَ علينا.

اللهم وفقنا لما تحبه وترضاه، ولك الحمد في الأولى والآخرة.

دمشق ١/ ٧/ ١٤١٨ هـ — حسن السماحي سويدان.

١/ ١١/ ١٩٩٧م

ترجمة المؤلف[1]

هو الإمام الكبير، والواعظ الشهير المربي أبو الفضل تاج الدين أحمد بن عبد الكريم الجُذامي نسباً، المالكي مذهباً، السكندري داراً.

كان جامعاً لأنواع العلوم من تفسير وحديث وفقه وأصول ونحو وغير ذلك. وله وعظ يعذُب في القلوب، ويحلو في النفوس.

قال الحافظ ابن حجر العسقلاني: كان المتكلِّمُ على لسان الصوفية في زمانه، وكانت له جلالة عجيبة ووقع في النفوس.

(١) طبقات الشافعية (٥: ١٧٧) الدرر الكامنة (١: ٢٧٣) البدر الطالع (١: ١١٥) الأعلام (١: ٢٢٢).

وقال الذهبي: كان ابن عطاء يتكّلم بالجامع الأزهر فوق كرسي بكلام يروِّحُ النفس. ومزج كلام القوم[1] بآثار السلف وفنون العلم فكثر أتباعه، وكانت عليه سيما الخير.

وكان يحضر مجلس وعظه الأئمة مثل الشيخ تقي الدين السبكي، وقرأ عليه كتاب «الحكم».

وقال شيخه أبو العباس المرسي: والله لا يموت هذا الشاب حتى يكون داعياً يدعو إلى الله.

مؤلفاته كثيرة أذكر منها:

١ ـ «لطائف المنن في مناقب أبي العباس وشيخه أبي الحسن».

٢ـ التنوير في إسقاط التدبير.

٣ـ تاج العروس الهادي لتهذيب النفوس.

٤ـ القصد المجرد في معرفة الاسم المفرد.

وكل هذه مطبوعة ينتفع الناس بها.

(١) الصوفية.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين. قال الإمام ابن عطاء الله رضي الله عنه:

[القسم الأول]:

[الحكم].

١ ـ من علاماتِ[١] الاعتمادِ على العملِ نقصانُ الرجاءِ عند وجود الزللِ.

٢ ـ إرادتُكَ التجريدَ[٢] مع إقامةِ اللهِ إياكَ في الأسبابِ من الشهوةِ الخفيَّةِ.

وإرَادتُك الأسبابَ مع إقامة الله إيّاك في التجريدِ

(١) في نسخة: (علامة).

(٢) أماطة كل ما يشغل عن الله تعالى عن القلب.

انحطاطٌ عن الهمةِ[1] العليَّةِ.

٣ـ سوابِقُ الهِمَمِ لا تخرِقُ أسوارَ الأقدارِ.

٤ـ أَرِحْ نفسك من التدبيرِ، فما قامَ به غيرُك عَنْكَ، لا تقمْ به لنفسِك.

٥ ـ اجتهادُك فيما ضَمِنَ لكَ وتقصيرُك فيما طَلَبَ منك دليلٌ على انطماسِ البصيرةِ منك.

٦ ـ لا يكن تأخُّرُ أمَدِ العَطاءِ ـ مع الإلحاحِ في الدعاء ـ موجباً ليأسك، فهو ضَمِن لك الإجابةَ فيما يختارُهُ[2] لك، لا فيما تختاره[3] لنَفْسِك، وفي الوقتِ الذي يريدُ، لا في الوقت الذي تُريدُ.

٧ ـ لا يشككنَّك في الوعدِ عدمُ وقوعِ الموعودِ به وإنْ تعيّن زمنُه، لئلا يكونَ ذلك قدحاً في بصيرتِكَ وإخماداً لنورِ سريرتِك.

---

(١) في نسخة: (الرتبة).

(٢) نسخة: (يختار).

(٣) في نسخة: (تختار).

٨ ـ إذا فتحَ لك [illegible]
قلَّ عملُك، فإنّه ما فتحها لك إلا وهو يريدُ أنْ يتعرَّفَ إليك. ألم تعلمْ أنّ التعرُّفَ هو مُورِدُه عليكَ، والأعمالَ أنت مهديها إليه، وأين ما تُهديه إليه مما هو مورِدُه عليكَ.

٩ ـ تنوَّعتْ أجناسُ الأعمال لتنوُّعِ وارداتِ الأحوالِ.

١٠ ـ الأعمالُ صُوَرٌ قائمةٌ، وأَرواحُها وجودُ سِرِّ الإخلاصِ فيها.

١١ ـ ادْفِنْ وجودَك في أرضِ الخمولِ، فما نَبَتَ مما لم يدفَنْ لا يتمُّ نتاجُه.

١٢ ـ ما نفعَ القلبَ شيءٌ مثلُ عُزْلَةٍ يَدْخُلُ بها مَيْدانَ فكرةٍ.

١٣ ـ كيف يُشرِقُ قلبٌ صُوَرُ الأكوانِ مُنْطَبِعَةٌ في مرآته؟ أم كيف يرحَلُ إلى اللهِ وهو مكبَّلٌ بشهواتِه؟

أم كيف يطمَعُ أنْ يدخُلَ حضرةَ الله وهو لم يتطهَّرْ

من جنابةِ غفلاتِه؟أم كيف يرجو أنْ يفهمَ دقائقَ الأسرارِ وهو لم يَـتُبْ من هفواتِه؟

١٤ ـ الكونُ كلُّه ظُلْمَةٌ، وإنما أنارَه ظهورُ الحقِّ فيه، فمن رأى الكونَ ولم يشهدْهُ فيه، أو عنده، أو قَبْلَه، أو بعدَه = فقد أعْوَزَهُ وجودُ الأنوار، وحُجِبَتْ عنه شموسُ المعارفِ بِسُحُبِ الآثارِ.

١٥ ـ مما يَدُلُّك على وجودِ قهرِهِ سبحانَه أنْ حَجَبَك عنه بما ليسَ بموجودٍ معه.

١٦ ـ كيف يُـتَصوَّرُ أنْ يَحْجُبَهُ شيءٌ وهو الذي أظهرَ كلَّ شيءٍ؟ كيف يُتصوَّرُ أنْ يحجبَهُ شيءٌ، وهو الذي ظهرَ بكلِّ شيءٍ؟ كيف يُتصوَّرُ أن يحجبَهُ شيءٌ، وهو الذي ظهرَ في كلِّ شيءٍ؟[1] كيف يتصوَّر أن يحجبَهُ شيءٌ، وهو الذي ظهرَ لكلِّ شيءٍ؟ كيف يُتصوَّرُ أن يحجبَهُ

(١) بآياته ودلائل وحدانيته كما قال الشاعر:

وفي كل شيء له آيةٌ تدلُّ على أنه الواحدُ

شيءٌ، وهو الظاهرُ قبلَ وجودِ كلِّ شيءٍ؟ كيف يُتصوَّرُ أن يحجبَهُ شيءٌ، وهو أظهر من كل شيءٍ؟ كيف يُتصوَّرُ أن يحجبَهُ شيءٌ، وهو الواحدُ الذي ليسَ معه شيءٌ؟ كيف يُتصوَّرُ أن يحجبَهُ شيءٌ، وهو أقربُ إليك من كلِّ شيءٍ؟ كيف يُتصوَّرُ أن يحجبَهُ شيءٌ، ولولاه ما كان[1] وجودُ كلِّ شيءٍ؟ يا عجباً! كيف يَظْهَرُ الوجودُ في العدم، أم كيف يثبُتُ الحادثُ[2] مع من له وصْفُ القِدَمِ؟.

١٧ ـ ما تَرَكَ من الجهلِ شيئاً مَنْ أرادَ أن يُحْدِثَ في الوقتِ غيرَ ما أظْـهَرَهُ اللهُ فيه.

١٨ ـ إحالتُك الأعمالَ على وجودِ الفراغِ من رُعُونَاتِ النفسِ[3].

١٩ ـ لا تَطْلُبْ منه أنْ يُخرجَك من حالةٍ ليستعمِلَك فيما سواها، فلو أرادَك لاستعملَك من غيرِ إخراجٍ.

---

(١) في نسخة: (ماظهر).

(٢) كل ما سوى الله تعالى.

(٣) في نسخة: (النفوس).

٢٠ ـ ما أرادتْ هِمَّةُ سالكٍ أنْ تقفَ عندما كُشِفَ لها إلا ونادتْهُ هواتفُ الحقيقةِ: الذي تَطْلُبُ أمامَك.

ولاتبرّجتْ له ظواهِرُ المكوَّنات إلا ونادتْهُ حقائِقُها: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ [البقرة: ١٠٢].

٢١ ـ طلبُكَ منه إتهامٌ له[١]، وطلبُك له غيبةٌ منك عنه، وطلبُك لغيرِه لقلَّةِ حيائِك منه، وطلبُك من غيرِه لوجودِ بُعدِك عنه.

---

(١) بين الطلب والدعاء عموم وخصوص مطلق فكل دعاء طلب وليس كل طلب دعاء.

أما الدعاء فالعبد مأمور به، بل هو العبادة، ومن ثمرته الافتقار إلى الله تعالى والاحتياج إليه، وبالدعاء يظهرُ العبدُ العبودية ويقوم بحق الربوبية، قال ابن عطاء الله في الحكمة (١٦٦): لا يكن طلبك تسبباً إلى العطاء منه فيقلَّ فهمك عنه، وليكن طلبُك لإظهار العبودية والقيام بحقوق الربوبية.

أما الطلب الخارج على آداب الدعاء فهو الذي يحمل الاتهام وهو الذي يحذّر منه الشيخ ابن عطاء الله رحمه الله تعالى انظر الحكمة (٩٢) والحكمة رقم (١٠٩) والحكمة رقم (١٢٨) والحكمة (١٦٦) والحكمة (١٧٢).

٢٢ ـ مامِنْ نَفَسٍ تُبْدِيهِ إلا وله قَدَرٌ فيك يُمْضِيه.

٢٣ ـ لا تترقَّبْ فروغَ الأغيار، فإنّ ذلك يقطَعُك عن وجودِ المراقبةِ له فيما هو مُقيمُكَ فيه.

٢٤ ـ لا تَسْتَغْرِبْ وقوعَ الأكدارِ ما دُمْتَ مقيماً في هذه الدارِ، فإنّها ما أبرزتْ إلا ما هو مُسْتَحَقُّ وَصْفِها، وواجبُ نَعْتِها.

٢٥ ـ ما تَوَقَّفَ مطَلبٌ أنت طالبُه بربك، ولا تيسَّرَ مطلَبٌ أنت طالبُه بنفسِك.

٢٦ ـ من علامات[1] النُّجْحِ في النهايات الرجوعُ إلى اللهِ في البدايات.

٢٧ ـ مَنْ أشْرَقَتْ بدايتُه أشرقَتْ نهايتُه.

٢٨ ـ ما استُودِعَ في غيبِ السرائرِ ظَهَرَ في شَهادةِ الظواهرِ.

---

(١) في نسخة: (علامة).

٢٩ ـ شَتَّانَ بين مَنْ يَسْتَدِلُّ به و[من] يستدِلُّ عليه: المُسْتَدِلُّ به عَرَفَ الحقَّ لأهلِهِ، فأثبتَ الأمرَ من وجودِ أصلِه.

والاستدلالُ عليه من عَدَمِ الوصولِ إليه، وإلا فمتى غابَ حتى يُسْتَدَلَّ عليه؟ ومتى بَعُدَ حتى تكونَ الآثارُ هي التي تُوصِلُ [1] إليه؟

٣٠ ـ ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ﴾ [الطلاق: ٧] الواصلون إليه.

﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ﴾ [الطلاق: ٧] السائرون إليه.

٣١ ـ اهتدى الراحلون إليه بأنوارِ التوجُّهِ، والواصلون لهم أنوارُ المواجهةِ.

فالأولون للأنوارِ، وهؤلاءِ الأنوارُ لهم، لأنهم للهِ لا لشيءٍ دونه ﴿قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام: ٩١].

---

(١) في نسخة: (الموصلة).

٣٢ ـ تَشَوُّفُك إلى ما بَطَنَ فيك من العيوبِ خيرٌ لك من تَشوُّفِك إلى ما حُجِبَ عنك من الغيوبِ.

٣٣ ـ الحقُّ ليس بمحجوبٍ عنك، وإنّما المحجوبُ أنتَ عن النظرِ إليه. إذ لو حَجَبَه شيءٌ لسَتَرَه ما حَجَبَهُ، ولو كان له ساترٌ لكان لوجودِه حاصرٌ، وكلُّ حاصرٍ لشيءٍ فهو له قاهرٌ ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٨].

٣٤ ـ أُخْرُجْ من أوصافِ بشريَّتِك عن كلِّ وصفٍ مناقِضٍ لعبوديتِك لتكونَ لنداءِ الحقِّ مجيباً، ومن حضرتِه قريباً.

٣٥ ـ أصلُ كلِّ معصيةٍ وغفلةٍ وشهوةٍ = الرِّضا عن النفسِ.

وأصلُ كلِّ طاعةٍ ويقظةٍ وعِفَّةٍ = عدمُ الرضا منكَ عنها.

وَلأَنْ تَصْحَبْ جَاهِلاً لا يرضى عن نفسه خيرٌ لك من أنْ تَصْحَبَ عالماً يرضى عَنْ نفسِه. فأيُّ علمٍ لعالِمٍ

يرضى عَنْ نفسِه، وأيُّ جهلٍ لجاهلٍ لا يرضى عن نَفْسِهِ؟!

٣٦ ـ شُعاعُ البَصيرةِ يُشهِدُك قربَهُ منك، وعينُ البَصيرةِ يُشْهِدُك عدمَك لوجودِه، وحقُّ البصيرَةِ يشهِدُك وجودَه لاعدَمَكَ ولا وجودَك.

٣٧ ـ كان اللهُ ولا شيءَ مَعَهُ، وهو الآنَ على ما عليْه كان.

٣٨ ـ لا تَتَعَدَّ نيَّةُ هِمّتِك إلى غيرِه، فالكريمُ لا تتخطّاهُ الآمالُ.

٣٩ ـ لا تَرْفَعَنَّ إلى غيرِه حاجةً هو موردُها عليك، فكيف يَرْفَعُ غيرُه ما كان هوله واضعاً؟

من لا يستطيعُ أن يَرفعَ حاجةً عن نَفْسِه فكيف يستطيعُ أن يكونَ لها عن غَيْرِهِ رافعاً؟!!

٤٠ ـ إنْ لم تُحَسِّنْ ظنَّك به لأجلِ جميلِ[1] وصفِه

(١) في نسخة: (حُسْن).

فحسِّنْ ظنَّك به لأجلِ[1] معاملتِه معك، فهل عَوَّدَكَ إلا حَسناً، وهل أسدى إليك إلا مِنَناً؟

٤١ ـ العَجَبُ كلُّ العجبِ ممن يَهْرُبُ ممّا لا انفكاكَ له عنه، ويَطْلُبُ ما لا بقاءَ له معه ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

٤٢ ـ لا ترحَلْ من كَوْنٍ إلى كَوْنٍ فتكونَ كحمارِ الرَّحى، يسيرُ والمكانُ الذي ارتحلَ إليه هو الذي ارتحَلَ عنه[2]، ولكن ارحَلْ من الأكوان إلى المكوِّن ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ [النجم: ٤٢] وانظر إلى قوله ﷺ: «فمن كانت هجرتُه إلى اللهِ ورسولِه فهجرتُه إلى اللهِ ورسولِه. ومَنْ كانت هجرتُه إلى دنيا يصيبُها أو امرأةٍ يتزوَّجُها، فهجرتُه إلى ما هاجرَ إليه»[3] فافهمْ

(١) في نسخة: (لوجود).
(٢) في نسخة(منه).
(٣) أخرجه البخاري ومسلم من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

قولَه ﷺ: «فهجرتُه إلى ما هاجرَ إليه» وتأمَّلْ[1] هذا الأمرَ إن كنتَ ذا فهمٍ.

٤٣ ـ لاتَصْحَبْ من لا يُنْهِضُك حالُه، ولا يَدُلُّك على اللهِ مقالُه.

٤٤ ـ ربّما كنتَ مسيئاً فأراك الإحسانَ منك صُحْبَتُك مَنْ هو أَسوأُ حالاً منك.

٤٥ ـ ما قَلَّ عملٌ بَرَزَ من قلبٍ زاهدٍ، ولا كَثُرَ عملٌ برزَ من قلبٍ راغبٍ.

٤٦ ـ حُسْنُ الأعمالِ نتائجُ حُسْنِ الأحوالِ، وحُسْنُ الأحوالِ من التحقُّقِ في مقاماتِ الإنزالِ.

٤٧ ـ لا تترُكِ الذِّكرَ لعدمِ حضورِكَ مع اللهِ فيه، لأنّ غَفْلَتَك عن وجودِ ذكرِه أشدُّ من غَفْلَتِك في وجودِ ذكرِه، فعسى أن يرفعَكَ من ذكرٍ مع وجودِ غفلةٍ إلى ذكرٍ مع وجودِ يقظةٍ، ومن ذكرٍ مع وجودِ يَقَظَةٍ إلى ذكرٍ مع

(١) في نسخة: (تدبر).